إهداء..

إلى هَارُون الرَّشِيد

الذِي تَرَك للأمَّةِ تُرَاثًا لا يَمْحُوه الزَّمَان
وَصَنَعَ لأجْيالِ المُسلمِين مَجدًا
خَالِدًا عَلَى مَرِّ الأيَّام...
وَفَاءً إليْك سَيِّدي مِقْدار حُبِّي لَك.

أبُو الرُّمَيْصَاء

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا، والصلاة والسلام على المبعوث للناس بشيرًا ونذيرًا..

وبعد..

ربما لا يسعد إنسان بما يسعد يوم عرسه، زينةً وبهاءً وجمالًا، وهكذا بالنسبة لتاريخ أمتنا، كانت أيام الرشيد لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس، كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حسنها أعراس.

من أجل ذلك فأيام الرشيد هي واسطة العقد في الخلافة الإسلامية، التي بلغت فيها أوج قوتها حُكمًا وسياسةً وإدارةً واقتصادً وأدبًا وفكرًا وفلسفةً، عرفه الشرق والغرب، وطار لذكره واشتاق لسماع أخباره وسياسته من يقرأ التاريخ ومن لم تتفتح بعدُ عليه عيناه.

لقد بلغت سيرة هارون الرشيد من العظمة والتقدير عند علماء الإسلام ومؤرخيه، أن جعلوه واحدًا من مجددي الإسلام في مسيرته الحضارية والسياسية، وترسخ - عن حقٍّ - أن هارون الرشيد واحدٌ من عظماء التاريخ القلائل الذين هم فخر للإنسانية، جزاء ما قدموا لها حضارةً وتقدُّمًا.

كان هارون الرشيد أقوى ملوك زمانه قاطبة، ووصل ترف الأمة في حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد كبير، وكان في أيام الرشيد من كبار الرجال مَن تزدان بهم الممالك مِن رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيبة في الداخل والخارج، وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي.

وأما عن دار السلام وعاصمة الخلافة بغداد - التي أبت عبر التاريخ أن تتسمى بغير اسمه - في أيامه وسط الدنيا وسرة الأرض والمدينة العظمى التي ليس لها

نظير في مشارق الأرض ومغاربها، فقد وصلت في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها، من حيث العمارة والثروة، وكان يسكنها في أيامه أكثر من مليون ونصف إنسان، تتعالى فيها القصور، وتمر بها التجارة من أقصى الأرض إلى أقصاها، ويتهافت إليها طلاب العلم من كل البقاع، حتى صارت بغداد الرشيد هي الدنيا كلها مجتمعة، كما وصفها الإمام الشافعي رحمه الله.

لقد صار هارون الرشيد واحدًا من أشهر خلفاء المسلمين الذي تألقت دولة الإسلام في عهده في جميع المجالات الشرعية والأدبية والاقتصادية، وشهدت الدولة في عهده ثلة من علماء المسلمين ما لم يجتمع لغيره في علوم الشريعة والحياة.

في هذه الأوراق جلاءٌ عن كثير من الحقائق التاريخية والحضارية في أيام الرشيد، والتي ارتبطت في أذهان الكثير باللهو والغناء والقيان، غير أن الروايات الصحيحة في كتب التاريخ والأدب تنطق بالحق، الذي يزهق باطل تلك الروايات المزيفة، التي أرادوا أن يطعنوا بها تاريخ الأمة وحضارتها. فلم نرَ في كتب التاريخ والتراجم شخصية اختلطت فيها حقائق التاريخ بالخيال بمثل شخصية الرشيد، فهو في حكايات ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني - وما نحى نحوهما في القديم والحديث في روايات جورجي زيدان وأحمد أمين - مثال الخليفة اللاهي العابث المخمور، وقد تجسَّدت تلك الصورة المظلمة فيما نراه من أفلام ومسلسلات جعلت تلك الروايات مصدرها، وهي كذوب!

أما عن حقيقة هارون الرشيد وأيامه فهي تلك التي نطقت بها الروايات الصحيحة في أمهات كتب التاريخ والتراجم والأدب والمحاضرات، وقد عشت شهورًا بين تلك الروايات، فإذا هو سيد الملوك وأمير الخلفاء، الغازي الحاج، الفقيه الأديب. وقد بدت فيها صورة الرشيد كالجبل الأشمِّ، في علو مكانته وعظيم سيرته، فمن كانت حياته بين العلماء والفقهاء والعبَّاد، بين سنابك الخيل ورايات الجهاد، أبدًا، لا مجال عنده للهو والترف والمجون والخنا!!

وقد دعاني إلى التقلب في أيام الرشيد ما أعتقده أن معرفة الأمة لماضيها خير وسيلة لتصوير المستقبل، فالأمة التي لا تعرف تاريخها، لا تقدِّر مهمتها، ولا تعرف غايتها، ولا تشخِّص حاضرها، ولا تبني مستقبلها. ومن المسلَّم به أن تاريخ الأمة بناه الأفراد المبدعون، وقد حفل التاريخ الإسلامي بعد جيل الصحابة بالآلاف من الرجال الذين غيَّروا مسار التاريخ وصنعوا للإسلام حضارة سادت العالم قرونًا، وهارون الرشيد واحدٌ من أعظم العظماء الذين صنعوا مجدًا وحضارة وتاريخًا مجيدًا للأمة الإسلامية في تاريخها كله.

هذا، وإن دراسة أيام الرشيد سيرة ومسيرة دراسة عميقة وفق السنن الإلهية، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]، تنير للأمة وحكامها الأسباب الحقيقية وراء تلك النهضة العلمية والحضارية التي شهدتها الأمة في عصره، عدلًا وجهادً وشريعةً وحضارةً ومدنيةً، وما أحوج أمتنا الآن أن تستحضر الرجال الذين صنعوا تاريخها وبنوا حضارتها، فما أشبه الليلة بالبارحة!

إن استلهام أيام الرشيد هي في الحقيقة دفاعٌ عن شرف الأمة وحضارتها، التي هي شرف رجالها الذين بنوا لها مجدها وعزها، كما قال العقاد: «آفة الشهرة تخلق السيئات كما تخلق الحسنات»، وقد طبقت شهرة الرشيد الخافقين، وبلغت الخلافة في عهده الذروة علمًا واقتصادً وقوةً، من أجل ذلك وجهت سهام التشويه والتزوير إلى الرشيد وأيامه. فما أحوج أمتنا أن تجلي الغبار عن حقيقة هذا الخليفة العظيم، الذي شوَّهه المستشرقون والمستغربون على حد سواء، فجعلوه في صورة الخليفة الماجن، الذي يقضي حياته بين النساء والخمر، وهي صورة مغلوطة بلا شك، أرادوا بها ضرب رمز من رموز الأمة، كان مصدر عزها في يوم من الأيام.

من أجل هذه الأسباب وغيرها نستحضر أيام الرشيد؛ لنظهر أوجه العظمة في خلافته، ولتكن رحلتنا جامعةً لأيامه الداخلية والخارجية، فبهما تكتمل الصورة

الحقيقية للخليفة العابد المجاهد.

وقد سميت الكتاب: «أيام الرشيد.. قصة العصر الذهبي للخلافة الإسلامية». قسَّمته إلى مقدمة وتمهيد وبابين، الباب الأول، مكوَّنٌ من تسعة فصول، والباب الثاني مكوَّنٌ من أربعة فصول، ثم خاتمة وملاحق وقائمة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها ورجعت إليها.

أما المقدمة فقد أوضحت فيها أهمية الدراسة وضرورتها، وذكرت في التمهيد سطورًا سريعة من أيام الرشيد منذ ولادته ونشأته، وبعضًا من أخلاقه وشمائله، ووظائفه قبل الخلافة، ثم ولايته للعهد وبيعته لخلافة المسلمين حتى وفاته رحمه الله.

أما الباب الأول فجعلته خاصًّا بالسياسة الداخلية، تناولت في الفصل الأول الجوانب السياسية في عهد هارون الرشيد، من خلال ذكر ولاةِ عهده ووزرائِه وكتَّابه وكذلك حجَّابه. وأما الفصل الثاني فتناولت الجوانب الإدارية في سياسة الرشيد، فبيَّنت النظام الإداري في دولته، وأوضحت حدود الخلافة العباسية في عهده مع أشهر الولايات، وحدود كل ولاية، وأشهر ولاة الرشيد، والدواوين في عهد الرشيد. وأما الفصل الثالث عرضت فيه النظام الحربي في عهد هارون، مبينًا أحوال الجيش والشرطة، وأشهر القادة العسكريين في أيام الرشيد. وأما الفصل الرابع فعرضت فيه سياسة الرشيد ضد الثورات الداخلية، بتعدد توجهاتها وانتماءاتها، وخصصت الفصل الخامس حول النظام القضائي، من خلال استحداث منصب قاضي القضاة، وأشهر قضاة الرشيد، والحسبة وأهميتها، ووظيفة المحتسبين. وأما الفصل السادس فقد تناولت فيه السياسة الاقتصادية في أيام الرشيد، فشرحت طبيعة النظام المالي، وعرضت موارد بيت المال من الخراج والصدقات وخُمس الغنائم، ومبيِّنًا أحوال الزراعة، والصناعة، والتجارة الداخلية والخارجية، والاعتناء بموسم الحج وطرقه إلى مكة والمدينة. وجعلت الفصل السابع للحديث عن الحياة الاجتماعية، فبيَّنت عناصر المجتمع في عهده، من خلال سياسة الرشيد في تعامله مع العلويين والفرس، وكذلك البرامكة ونكبتهم. كما تناولت

طبقات المجتمع الثلاث العليا والوسطى والسفلى، وأهم ما يميِّز كل منها، وأهم العادات والتقاليد السائدة في عصره. وفي الفصل الثامن تحدثت عن الحياة العلمية وإنشاء الرشيد بيت الحكمة وتقريبه للعلماء والفقهاء، واهتمامه بالترجمة والعلوم التجريبية وعلوم الحياة، وأشهر العلماء الشرعيين والتجريبيين في عهده، وأحوال الأدب في أيامه، وكذلك انتشار صناعة الورق والوراقين. وتناولت في الفصل التاسع مواقف خالدة للرشيد مع أشهر العلماء والفقهاء في عصره، كالإمام مالك والشافعي والقاضي عياض وقاضيه أبي يوسف وعبد الله بن المبارك رحمهم الله جميعًا.

أما الباب الثاني فخصصته للسياسة الخارجية في أيام الرشيد، عرضت في الفصل الأول سياسة الدولة العباسية عامة مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم السياسة التي اتبعها الرشيد، وأشهر المعارك الحربية ضد البيزنطيين. وأما الفصل الثاني تناولت فيه سياسة هارون الرشيد مع الإمبراطورية الرومانية، فبدأت بتعريف سريع بها وملكها شارلمان، ثم سياسة الرشيد مع شارلمان، مفنِّدًا الشبهات المثارة حول طبيعة العلاقة بينهما. وخصصت الفصل الثالث حول سياسة هارون الرشيد مع بلاد الترك والهند والصين. وجعلت الفصل الرابع حول سياسة هارون الرشيد مع إمارات المغرب العربي، وطبيعة علاقة الرشيد مع إخوانه الأمويين في الأندلس، والرد على الشبهات المثارة في ذلك.

وفي الخاتمة ذكرت أهم ما نستنتجه من حياة الرشيد وسياسته، وأتبعت ذلك ببعض الملاحق المتصلة، ثم ختمت البحث بذكر أهم المصادر والمراجع والدوريات والمجلات والمقالات التاريخية.

وختامًا.. سيظل أمير المؤمنين هارون الرشيد صفحة مضيئة من تاريخ الأمة الإسلامية، لها فضلها الحضاري في التاريخ الإنساني كله، ولا نبالغ. وإني لا أزعم أني وفَّيت الرشيد حقَّه في هذه السطور، غير أن هذا جهد استطاعتنا.

والحمد لله أولًا وآخرًا

«كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ سِيرَةً، وَأَكْثَرِهِمْ غَزْوًا وَحَجًّا بنفسِهِ. وَفَضَائِلُهُ، وَمَكَارِمُهُ، وَمَآثِرُهُ، وَأَشْعَارُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا».

ابن كثير: البداية والنهاية (14/ 27 – 45)

obeikandl.com

تمهيد
سطور من حياة الرشيد

هو أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي[1]. ينحدر نسبه إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ، وهو من ولد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن الذي قال فيه ﷺ: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[2].

ولد هارون الرشيد في الري بطبرستان في أواخر ذي الحجة 148هـ/ 765م في خلافة جده أبي جعفر المنصور وولاية أبيه محمد المهدي على خراسان وطبرستان[3].

(1) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 447. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230. ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، 1/ 75. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 318. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 273. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 27. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، 4/ 225.

(2) أحمد بن حنبل: المسند، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر، رقم (2397)، 3/ 95.

(3) هناك خلاف بين المؤرخين في تاريخ ولادة هارون الرشيد بين شهور شوال وذي الحجة والمحرم، وبين أعوام 145 و 146 و 147 و 148 و 149 و 150، وأنا أرجح أن مولده لثلاث بقين من ذي الحجة سنة 148هـ فالكل يكاد يجمع أنه توفي 193هـ عن عمر يناهز 45 عامًا فتكون ولادته 148هـ. وأما البرامكة فتدَّعي أن الرشيد ولد في المحرم سنة 150هـ وقيل في المحرم سنة 149هـ. وأن الفضل بْن يَحْيَى البرمكي ولد قبله بسبعة أيام، فجعلت أم الفضل ظئرا لَهُ، وهي زينب بْنت منير، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد. انظر الطبري: السابق نفسه. ابن الجوزي: السابق نفسه. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5 / 156، 5/ 273. أبو الفداء الملك المؤيد: المختصر في أخبار البشر، 2 / 12. ابن كثير: البداية والنهاية، 14 / 27 – 28.

أسرة الرشيد

ولد هارون الرشيد في بيت علمٍ وأدب، بين أحضان أسرة السؤدد والخلافة وعلو الشأن والجاه، أبوه أمير المؤمنين محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي (158هـ - 169هـ)، كان خليفة عادلًا، يجلس للمظالم وبين يديه القضاة، فيزيل عنهم مظالمهم، ميَّالا للسنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله ﷺ، وكان شهمًا فطنًا كريمًا شديدًا على أهل الإلحاد والزَّندقة، وهو من أقام البريد بين المدينة المنورة ومكة واليمن بغالًا وإبلًا، ولم يقم هناك بريد قبل ذلك[1].

وأمه هي أم ولد الخيزران بنت عطاء الجرشية اليمنية، وهي أم أخيه موسى الهادي، وهي أم الخلفاء، محمودة السيرة ميمونة النقيبة، وفيها يقول أبو المعافي:

يَا خَيزُران هناكِ ثمَّ هُنَاكِ أمسَى العبادُ يسوسهم أبناك

وكانت عاقلة لبيبة ديِّنة، كان دخلها في السنة ستة آلاف وستين ألف ألف درهم، فكانت تنفقها في الصدقات وأبواب البر[2].

وأما أخوه من أبيه وأمه فهو أمير المؤمنين موسى الهادي، وقد كان متيقِّظا غيورًا، كريمًا شهمًا أيِّدا، شديد البطش جريء القلب مجتمع الحسِّ، ذا إقدام وعزم وحزم، ملك بعد أبيه المهدي (169هـ - 170هـ)، وكان شديد الوطأة على الزنادقة والملاحدة مثل أبيه. وكان شجاعًا قويًا، روي أنه كان يثب على الدابة وعليه

(1) للاستزادة من أخبار الخليفة المهدي رحمه الله انظر: ابن حبيب: المحبر، 1/ 436. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 108. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، رقم (937)، 3/ 382. السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 201. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص102.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، رقم (7299)، 16/ 9 - 10. ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، 1/ 194. الصفدي: الوافي بالوفيات، 27/ 118. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9 / 286 - 287. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، 27/ 6. ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، 1/ 132.

درعان، ولم تطل مدته في الخلافة حتى يكون له في أحوال الأمة أثر ظاهر[1].

وأما عن أخواته من النساء، فله: عليَّة بنت المهدي (160هـ - 210هـ)، كانت من أحسن خلق الله وجهًا، وأظرف النساء وأعقلهن، ذات صيانة وأدب بارع، تزوجها موسى بن عيسى العباسي، وكان الرشيد يبالغ في إكرامها واحترامها، ولها ديوان شعر، وكانت من أعف الناس، كانت إذا طَهُرت لازمت المحراب، وإذا لم تكن طاهرة غنَّت، وكان الرشيد لا يصبر عن غيابها، وكانت تدخل على الرشيد فيكرمها ويأمرها بالجلوس معه على سريره فتأبى. وكانت تقول: "ما حرم الله شيئًا إلا وقد جعل فيما أحل عوضًا منه، فبماذا يحتج العاصي؟..، اللَّهم لا تغفر لي حرامًا أتيته ولا عزمًا على حرام عزمته، ولا استفزعني لهوٌ إلا ذكرت نسبي من رسول الله ﷺ فقصرت عنه، ولا أقول ما أقول في شعري إلا عبثًا"[2].

وله أخته العبَّاسة بنت المهدي، تزوجها محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس سنة 172هـ، وهي أول بنت خليفة من بني هاشم نقلت من بلد إلى بلد، نقلها إلى البصرة، فتوفي عنها، وخلف عليها إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس والي الرشيد على مصر وفلسطين، وتوفي عنها، ثم أراد عيسى بن جعفر العباسي أن يخطبها فلم يتم ذلك، وكانت العباسة بارعة الجمال، وكان الرشيد يحبها ولا يكاد يفارقها، وتوفيت سنة 182هـ[3]. وهي من افترى عليها المفترون بالفاحشة مع جعفر البرمكي، وادَّعوا أن ذلك سبب نكبة البرامكة، وقد أرادوا بذلك

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 187. ابن حبيب: المحبر، 1/ 445. ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 1/ 380. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 187. المسعودي: التنبيه والإشراف، 1/ 297.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 10/ 230 - 233. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 10/ 187 - 188. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، 3/ 123 - 126.

(3) ابن حبيب: المحبر، ص61. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 8/ 343، الصفدي: الوافي بالوفيات، 16/ 382 - 383.

أن يحطُّوا من مروءة الرشيد وعرضه، وهي منها براء.

وأما عن صفة الرشيد فقد كان رحمه الله تام الخلقة، أبيض، طويلًا، جميلًا، مليحًا، مُسمَّنًا، فصيحًا، جعدًا، قَد وَخَطَهُ الشَّيبُ[1].

زواجه وأولاده

تزوج هارون الرشيد من ابنة عمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور سنة 165هـ[2]، وأنجبت له ولده محمد الأمين في 16 شوال 170هـ، كما تزوج العبَّاسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر المنصور سنة 187هـ. وتزوج عدة نساء أخريات، وتوفي عن أربع منهن.

كما كانت له عدة جوار أنجبن له عدة أولاد منهم: عبد الله المأمون، وأمه اسمها مراجل، وهو أكبر أولاد الرشيد، إذ ولد المأمون ليلة بويع الرشيد بالخلافة يوم 14 ربيع الأول 170هـ، وبذا يكون أكبر من الأمين بستة أشهر. ومنهم محمد المعتصم، وأمه اسمها ماردة، ومنهم القاسم المؤتمن، وأمه اسمها قصف. وكان الرشيد يكنى بأبي موسى ثم عرف بأبي جعفر، وله كذلك من الجواري محمد وعلي وصالح، من أمهات أولاد. وله من البنات: سكينة وأمها قصف وهي أخت القاسم، وأم حبيب وأمها ماردة وهي أخت المعتصم، وأم محمد وهي حمدونة، وغيرهن من أمهات أولاد[3].

(1) البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 9. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1223.

(2) زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الهاشمية العباسية (توفيت ببغداد سنة 216هـ)، زوج الرشيد وأحب الناس إليه في زمانها وأم ولده الأمين، وقيل: لم تلد عباسية خليفة إلا هي. وكان لها حُرْمة عظيمة وبرّ وصَدَقات، وآثار حميدة في طريق الحج، وإليها تنسب عين زبيدة. والمنصور جدُّها هو الذي لقّبها زُبيدة لجمالها ونضارتها. ومن أخبارها أنّها أنفقت في حجتها بضعةً وخمسين ألف ألف درهم. وقيل: كان في قصرها من الأموال والحَشَم والخَدَم والآلات ما يقصُر عنه الوصف، من جُملة ذلك مائة جارية، كلٌّ منهنّ تحفظ القرآن، فكان يُسمع من قصرها كَدَوِيِّ النَّحْلِ من القراءة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/ 314 – 317. الذهبي: تاريخ الإسلام، 5/ 314. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 203.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 359 – 360. وقد ذكر الطبري أن للرشيد تسعة من الأولاد اسمهم: «محمد» أعظمهم اسمًا محمد الأمين. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 48 – 49.

نشأة الرشيد وتعليمه

نشأ الرشيد في بيت المُلك والخلافة، وكان لذلك عظيم الأثر في تكوينه الشخصي والعقلي وطبيعته النفسية؛ حيث تربى تربية مترفة، وأُعِدَّ للمناصب القيادية في دولة أبيه وأجداده. فقد اهتم الخلفاء والأمراء العباسيّون بتعليم أولادهم ورعايتهم، فلم يترك خليفة بنيه إلا وقد عيَّن لهم أجلاء العلماء في الأدب والنحو واللغة والفقه، وغير ذلك من العلوم. ومنذ أن صار هارون فتيًّا عيَّن له أبوه المهدي مدرسًا يلازمه ويلقِّنه العلم، وبقي هذا المدرِّس بجانبه لم يفارقه حتى مات، وهو أبو الحسن علي بن حمزة الأسدي المعروف بالكسائي النحوي رحمه الله.

والكسائي هو إمام في اللغة والنحو، وقرأ القرآن على حمزة الزيات أربع مرات، واختار لنفسه قراءة هي إحدى القراءات السبع، وتعلم النحو على كبر سنه، ومن أجل ذلك حفظ له هارون الرشيد منزلته ومكانته حتى عهد له ولده الأمين يربيه ويفقهه، وكان الرشيد يعظِّمه، وفي ذلك يقول الجاحظ: "كان أثيرًا عند الخليفة، حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين"[1].

وممن كان يشرف على تأديب الرشيد وتعليمه كذلك المفضَّل الضبِّي، وكان أحد الأئمة الفضلاء الثقات، وكان علامة في النسب وأيام العرب، راويةً للأدب والأخبار، موثّقا في روايته[2]. كذلك أخذ الرشيد علوم الفقه والحديث عن الإمام مالك بن أنس[3].

لقد استطاع المهدي أن يوكل تعليم هارون الرشيد إلى مؤدبين عديدين

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 13/ 348 – 349. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ترجمة رقم (753)، 4/ 1738. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجلُّ ملوك الدنيا، ص 17.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 340. القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، 3/ 298. . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 69.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 63 – 64.

تخصَّص كل واحد منهم في فرع من فروع المعرفة، وقد كان للكسائي اليد الطولى على جميعهم، وكان من مشاهير المفكرين في عصره، وأما متولِّي أموره وأعماله فهو يحيى البرمكي الذي كان هارون يدعوه: "أبتي"، وسيظل ملازمًا لهارون إلى أن يُنكب البرامكة[1].

وهكذا نشأ هارون وترعرع وشبَّ في ظروف ملائمة كل الملائمة لاستكمال مزاياه الشخصية، كان لهؤلاء العلماء الأجلاء أثر واضح في تربيته وتكوينه الثقافي والعلمي وذوقه الحضاري، مما انعكس إيجابًا في فترة حكمه، التي شهدت تقدمًا حضاريًا في شتى المجالات عامة والأدبية منها خاصة.

أخلاق الرشيد وشمائله

تتراءى لنا صورة الرشيد وشمائله من قول ابن خلدون: "فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرَّشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصُّبح لأوَّل وقتها"[2]. من هنا تتضح لنا صورة هارون الرشيد الحقيقية، أنها صورة الخليفة العالم العابد الزاهد المجاهد، وليست صورة الخليفة الماجن الذي يعاقر الخمر، ويجاري القيان، ويجلس لأرباب الغناء والموسيقى.

والمتأمل في كتب الأولين في تعرضهم لترجمة الرشيد يلحظ أنهم أجمعوا على تقديم خمس من صفاته، فنجد:

---

(1) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 52 – 53. بتصرف.

(2) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 304. ولعل ابن خلدون يقصد بقوله: «ومكاتبته سفيان الثوري» سفيان بن عيينة؛ لأن سفيان الثوري مات سنة 161هـ، أي قبل خلافة الرشيد، ومعلوم أن الرشيد كانت بينه وبين سفيان بن عيينة (ت: 198هـ) مكاتبات ومحاورات.

الأولى: أنه يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة.

الثانية: أنه كان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته.

الثالثة: أنه كان إذا حج، حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم، وإذا لم يحج، أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

الرابعة: أنه كان يغزو عامًا ويحج عامًا. واتخذ قلنسوة مكتوب عليها: غاز حاج، وفيه يقول ابن أبي السعلى:

فَمَنْ يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدْهُ فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ

الخامسة: أنه كان سخي اليد كريم العطاء، أسنى الناس عطية ابتداءً وسؤالًا، وكان لا يضيع عنده يد ولا عارفة، وكان لا يؤخر عطاءه، ولا يمنعه عطاء اليوم من عطاء غد[1].

ومن أجمل ما قرأت في وصف هارون الرشيد ما ذكره الإمام الماوردي في نصيحة الملوك، قوله: "وكان هارون الرشيد متدينًا شديد التعصب للإسلام والديانة، ظاهر الشهامة جلدًا في السياسة والحماية، ذابًا عن أركان الملة، كمشًا (الرجل السريع الجادُّ في أمره) في الدعوة، غزا الروم غير مرة بنفسه، وكتب إلى عظماء الكفرة بتهديده ووعيده، وحج إلى بيت الله ماشيًا وراكبًا، وقلَّ ما كان يخلو من غزوة أو حجة.. وكان مولعًا بالفقهاء، مقرِّبًا للعلماء، مهتمًا بأمر دينه، حتى كان يوصف بالتقوى والخشية، فقال فيه أبو نواس:

إِمامٌ يخافُ الله حتى كأنّما يَرَاهُ من التَّقْوَى صَباحَ مَسَاء"[2]

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 10 – 11. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 347. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 325 – 326. ابن عساكر: تاريخ دمشق، 73/ 287 – 288. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 392 – 393.

(2) الماوردي: نصيحة الملوك، ص81 – 82.

وذكر السيوطي في تاريخه أن أبا العتاهية قال لأبي نواس: البيت الذي مدحتَ به الرشيد، لودِدْتُ أني كنت سبقتك به إليه:

قد كنتُ خِفتُك ثم أَمَّنَنِي مِنْ أن أخافَك خوفُك الله[1]

وكان الرشيد رحمه الله كثير البكاء من خشية الله تعالى، سريع الدمعة عند الذكر، محبًّا للمواعظ، قال عن ذلك منصور بن عمَّار: "ما رأيت أغزر دمعًا عند الذِّكر من ثلاثة: فضيل بن عياض، وأبي عبد الرحمن الزاهد، وهارون الرشيد". وقد وعظه الفضيل بن عياض والشافعي وسفيان بن عيينة وابن السماك، والعمري والبهلول، وغيرهم، وكان يتقبل الموعظة ويكثر البكاء[2].

وقد حكي عن الرشيد في حجَّاته مواقف جليلة، ظهر فيها بكاؤه وعظيم خشيته من الله، وشدة ورعه وزهده وتواضعه، من ذلك ما حكاه إبراهيم بن عبد الله الخرساني، قال: "حججْت مَعَ أبي سنة حج الرشيد، فَإِذا نَحن بالرشيد وَهُوَ وَاقِف حاسر حاف على الْحَصْبَاء، وَقد رفع يَدَيْهِ وَهُوَ يرتعد ويبكي وَيَقُول: "يَا رب! أَنْت أَنْت، وَأَنا أَنا، أَنا العوَّاد إِلَى الذَّنب، وَأَنت العوَّاد إِلَى الْمَغْفِرَة، اغْفِر لي". فَقَالَ لي: "يَا بني! انْظُر إِلَى جَبَّار الأَرْض كَيفَ يتَضَرَّع إِلَى جَبَّار السَّمَاء"[3].

وفي رواية أن الرشيد رحمه الله كان يقف حول البيت وينادي: يارب! أنت أنت، وأنا أنا! أنت العزيز وأنا الذليل!، فقال سفيان البلخي لولده: من هذا؟ فقال: يا أبتِ هذا جبار الأرض يتضرع لجبار السماء[4].

وروي أن الرشيد حج مرة، فدخل الكعبة وقام على أصابعه، وقال: "يا من

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 217 – 218.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 328. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 2/ 433 – 434.

(3) أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، 1/ 217 – 218.

(4) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الخامس (الدرر السنية في أخبار الدولة العباسية)، 5/ 125.

يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإنّ لكلّ مسألة منك ردّا حاضرًا وجوابًا عتيدًا، ولكلّ صامت منك علم محيط باطن بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة، صلّ على محمد وآله، واغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيئاتنا، يا من لا تضرّه الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات، يسألونك الحاجات، إنّ من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفّيتني وصرت في لحدي، وتفرّق عنّى أهلي وولدي. اللهم لك الحمد حمدًا يفضل كلّ حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صلّ على محمّد صلاة تكون له رضى، وصل على محمد صلاة تكون له حرزًا، واجزه عنا الجزاء الأوفى. اللهم أحينا سعداء وتوفَّنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين ولا تجعلنا أشقياء محرومين"[1].

وكان الرشيد يقرِّب العلماء والفقهاء ويقبل بنصيحتهم وينزل عن رأيهم، وكان يتقبل الموعظة ويكثر البكاء، دخل عليه ابن السماك الواعظ يومًا، فقال له: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ تَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُقْبَرُ وَحْدَكَ، فَاحْذَرِ الْمُقَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ، وَالْوُقُوفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حِينَ يُؤْخَذُ بِالْكَظَمِ، وَتَزِلُّ الْقَدَمُ، وَيَقَعُ النَّدَمُ، فَلَا تَوْبَةَ تُنَالُ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُ، وَلَا يُقْبَلُ فِدَاءٌ بِمَالٍ"، فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: "يا ابن السماك لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة"، فقام هارون الرشيد فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له مرة: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ لَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ مَوْقِفًا، فَانْظُرْ أَيْنَ مُنْصَرَفُكَ: إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ إِلَى النَّارِ؟"، فبكى الرشيد حتى كاد أن يموت.

واستسقى الرشيد يومًا وابن السماك جالسٌ عنده، فأُتي بقلة فيها ماء مبرَّد، فقال لابن السماك عظني، فقال: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِكَمْ كُنْتَ مُشْتَرِيًا هَذِهِ الشَّرْبَةَ لَوْ مُنِعْتَهَا؟" فقال: "بِنِصْفِ مُلْكِي". فقال: "اشْرَبْ هَنِيئًا". فلما شرب، قال: "أَرَأَيْتَ لَوْ مُنِعْتَ خُرُوجَهَا مِنْ بَدَنِكَ، بِكَمْ كُنْتَ تَشْتَرِي ذَلِكَ؟" قال: "بِمُلْكِي كُلِّهِ". فقال:

(1) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 4/ 19 – 20.

"إِنَّ مُلْكًا قِيمَتُهُ شَرْبَةُ مَاءٍ لَخَلِيقٌ أَنْ لَا يُتَنَافَسَ فِيهِ". فبكى هارون[1].

وذكر ابن الجوزي أن الرشيد قال لشَيبان الواعظ: عِظْني. قال: لأن تصحب مَن يخوّفك حتى يدركك الأمنُ، خيرٌ لك من أن تَصْحَب من يؤمّنك حتّى يُدركك الخوف. قال الرشيد: فسِّر لي هذا ؟ قال: من يقول لك أنت مسئول عَن الرعيّة فاتّق اللَّه، أنصَح لك ممَّن يقول: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم، وأنتم قرابة نبيّكم. فبكى الرشيد حتى رحمه مَن حوله[2]. وقال أبو معاوية الضرير: "ما ذكرت النبي ﷺ بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي، وحدَّثته بحديثه ﷺ: "وَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلَ"، فبكى هارون حتى انتحب[3].

وروي عن الأصمعي قال: دخلت على الرشيد ودموعه تنحدر على خدَّيه، وهو ينظر في كتاب، فظللت قائمًا حتى سكن، فحانت منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعي. فجلست، فقال: أرأيت ما كان؟ فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين. فقال: أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا، ثمّ رمى بالقرطاس إليّ، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخطٍّ جليل:

هَلْ أَنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَرِبَتْ ... مِنْهُ غَدَاةَ قَضَى دَسَاكِرُهُ

وَبِمَنْ أَذَلَّ الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... فَتَبَرَّأَتْ مِنْهُ عَسَاكِرُهُ

أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَيْنَ عِزُّهُمْ ... صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ

يَا مُؤْثِرَ الدُّنْيَا لِلَذَّتِهِ ... وَالْمُسْتَعِدُّ لِمَنْ يُفَاخِرُهُ

نَلْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَنَالَ مِنْ الدُّ ... نْيَا فَإِنَّ الْمَوْتَ آخِرُهُ

فقال الرشيد رحمه الله: والله لِكَأَنِّي أُخَاطَبُ بهذا الشعر دون الناس. فلم يلبث

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 623، 14/ 33، 37.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 18/ 250.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 11.

بعد ذلك إلا يسيرًا حتى مات[1].

وكان هارون الرشيد شديد الغيرة على الدين ولم يحابي فيها أحدًا من أقاربه حتى عمه، الذي كاد أن يبطش به، روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده أن أبا معاوية الضرير دخل على الرشيد وعنده عمه عليٌّ، فجرى الحديث إلى أن خرج أبو معاوية إلى حديث الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن موسى لقي آدم، فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة؟». وذكر الحديث، فقال عليٌّ عم الرشيد: «أين لقي آدم موسى؟»، قال: فغضب الرشيد، وقال: «النطع والسيف زنديق والله، يطعن في حديث رسول الله ﷺ»، قال: فما زال أبو معاوية يُسَكِّنه، ويقول: «كانت منه بادرة، ولَم يفهم يا أمير المؤمنين، حتى سكَّنه»[2].

وكان الرشيد شديد البطش بأهل البدع والأهواء والزنادقة كأبيه وجدِّه، ويحتسب ذلك قربة إلى الله تعالى، فقد جيء إليه برجل يقول بخلق القرآن فضرب عنقه، ثم قال: «قتلته؛ لأنه قال القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل». وكان رحمه الله شديد الحب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال أبو بكر بن عياش: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، انْظُرْ هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك»، فقال الرشيد: «أو لستُ كَذَلِكَ؟ أَنَا وَاللَّهِ كَذَلِكَ أُحِبُّهُمَا وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا، وَأُعَاقِبُ مَنْ يُبْغِضُهُمَا».

وروى الطبري أن الرشيد سأل أحد ولاته عن سيرته بين رعيته، بقوله: كيف تركت الناس؟ فقال: «يا أمير المؤمنين، أحسنتُ فيهم السيرة وأنسيتُهم سيرة العمرين». فغضب الرشيد واستشاط، وقال: «يا بن اللخناء، العمرين، العمرين، العمرين! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز، نحتملها لعمر بن الخطاب!».

وكان الرشيد يخشى الفقر، مع أنه كان يملك الدنيا وما فيها، إلا أنه رحمه الله

(1) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص116 – 117.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 3/ 135. 16/ 11 – 12.

علم حقيقة الدنيا وأنها فانية ولن تغني عنه شيئًا، قال ابن قتيبة: «حدَّثنا الرياشي سمعت الأصمعي، يقول: «دَخَلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ وَهُوَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ»، فقلت له في ذلك، فقال: «أَخْذُ الْأَظْفَارِ يَوْمَ الْخَمِيسِ مِنَ السُّنَّةِ، وَبَلَغَنِي أَنَّ أَخْذَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَنْفِي الْفَقْرَ»، فقلت: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَ تَخْشَى الْفَقْرَ؟ فَقَالَ: «يَا أَصْمَعِيُّ وَهَلْ أَحَدٌ أَخْشَى لِلْفَقْرِ مِنِّي؟»[1].

وكان الرشيد عالمًا فقيهًا متدينًا، عرض له رجل من النُّساك، فقال: يا هارون، اتق الله، وأغلظ له في القول، فأمر الرشيد أن يُطعم الرجل من خاص طعامه، فلمَّا أكل وشرب دعا به، فقال الرشيد: يا هذا، أنصفني في المخاطبة والمسألة، قال: ذاك أقل ما يجب لك، قال: فأخبرني: أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال: بل فرعون، قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، قال الرشيد: صدقت، فأخبرني فمَن خير؟ أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليم الله وصفيه، اصطنعه لنفسه، وَائْتمنه على وحيه، وكلمه من بين خلقه، قال الرشيد: صدقت، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنياه، وهذا وهو في عتوِّه وجبروته، على ما قد علمت، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم، أؤدي أكثر فرائض الله عليَّ، ولا أعبد أحدا سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدَّبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما كان يؤمنك أن أسطو بك! فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيًا.

قال الزاهد: أخطأت يا أمير المؤمنين، وأنا أستغفرك، قال الرشيد: قد غفر لك الله. وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها، فقال له الرشيد: لم نعطك هذا المال لحاجتك إليه، ولكن من عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله ومنحه، فاقبل من صلتنا ما شئت، وضعها حيث أحببت. فأخذ

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 353 – 354. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 32.

الرجل من المال ألفي درهم، وفرَّقها على الحجَّاب ومن حضر الباب[1].

وكان الرشيد يعظِّم السنَّة واقتفاء أثر النبي ﷺ في جمع أحواله، حتى في ابتداء مجلسه وانتهائه، فكان الرشيد إذا قال: سبحانك اللهم وبحمدك! قام سُمَّاره[2]. كما كان يعظّم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص، وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: «لئن ظفرت به لأضربنَّ عنقه»[3]. كما أمر بحبس ثمامة بن أشرس البصري المتكلِّم، وكان من رؤوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن[4].

وكان هارون الرشيد يكره التبذير والإسراف عكس ما أشاعوا عنه، وهو منهما براء، روى ابن عساكر عن إبراهيم الْمَهْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا عِنْدَ الرَّشِيدِ فَدَعَا طَبَّاخَهُ فَقَالَ: أَعِنْدَكَ فِي الطَّعَامِ لَحْمُ جَزُورٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَلْوَانٌ مِنْهُ. فَقَالَ: أَحْضِرْهُ مَعَ الطَّعَامِ فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخَذَ لُقْمَةً مِنْهُ فَوَضَعَهَا فِي فِيهِ فَضَحِكَ جَعْفَرٌ الْبَرْمَكِيُّ، فَتَرَكَ الرَّشِيدُ مَضْغَ اللُّقْمَةِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: مم تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلامًا بيني وبين جاريتي البارحة، فقال له: بحقي عليك لما أخبرتني به، فقال: حَتَّى تَأْكُلَ هَذِهِ اللُّقْمَةَ، فَأَلْقَاهَا مِنْ فِيهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُخْبِرَنِّي، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِكَمْ تَقُولُ إِنَّ هَذَا الطَّعَامَ مِنْ لَحْمِ الْجَزُورِ يُقَوَّمُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ. قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّكَ طلبت من طباخك لَحْمَ جَزُورٍ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ فَلَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُ، فَقُلْتُ: لَا يَخْلُوَنَّ الْمَطْبَخُ مِنْ لَحْمِ جَزُورٍ، فَنَحْنُ نَنْحَرُ كُلَّ يَوْمٍ جزور لأجل مطبخ أمير المؤمنين؛ لأنَّا لا نشتري من السوق لحم جزور. فَصُرِفَ فِي لَحْمِ الْجَزُورِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَمْ يطلب أمير المؤمنين لحم جزور

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 358 – 359.

(2) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص119.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص210.

(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 8/ 20.

إلا هذا الْيَوْمَ.

قَالَ جَعْفَرٌ: فَضَحِكْتُ؛ لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا نَالَهُ مِنْ ذَلِكَ هَذِهِ اللُّقْمَةُ. فَهِيَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ. قَالَ: فَبَكَى الرشيد بكاء شديدًا وأمر برفع السماط من بين يديه، وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُوَبِّخُهَا وَيَقُولُ: هَلَكْتَ وَاللَّهِ يا هارون. وَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى آذَنَهُ الْمُؤَذِّنُونَ بِصَلَاةِ الظُّهْرِ، فَخَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ ثُمَّ رَجَعَ يَبْكِي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وَقَدْ أَمَرَ بِأَلْفَيْ أَلْفٍ تُصْرَفُ إِلَى فُقَرَاءِ الْحَرَمَيْنِ فِي كُلِّ حَرَمٍ أَلْفُ أَلْفٍ صَدَقَةً، وَأَمَرَ بِأَلْفَيْ أَلْفٍ يَتَصَدَّقُ بِهَا فِي جَانِبَيْ بَغْدَادَ الْغَرْبِيِّ وَالشَّرْقِيِّ، وَبِأَلْفِ أَلْفٍ يُتَصَدَّقُ بِهَا على فقراء الكوفة والبصرة، ثم خرج إلى صلاة الْعَصْرِ، ثُمَّ رَجَعَ يَبْكِي حَتَّى صَلَّى الْمَغْرِبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَاكِيًا فِي هَذَا الْيَوْمِ؟ فَذَكَرَ أَمْرَهُ وَمَا صَرَفَ مِنَ الْمَالِ الْجَزِيلِ لِأَجْلِ شَهْوَتِهِ، وَإِنَّمَا نَالَهُ مِنْهَا لُقْمَةٌ.

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِجَعْفَرٍ: هَلْ كان ما تذبحونه مِنَ الْجَزُورِ يَفْسَدُ، أَوْ يَأْكُلُهُ النَّاسُ؟ قَالَ: بَلْ يَأْكُلُهُ النَّاسُ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِيمَا صَرَفْتَهُ مِنَ الْمَالِ الَّذِي أَكَلَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ، وَبِمَا يسره الله عليك من الصدقة، وَبِمَا رَزَقَكَ اللَّهُ مِنْ خَشْيَتِهِ وَخَوْفِهِ فِي هذا اليوم، وقد قال تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46]، فَأَمَرَ لَهُ الرَّشِيدُ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ اسْتَدْعَى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا الْيَوْمِ عَشَاءً[1].

ومع ما كان في الرشيد من الجدِّ والحزم، فكان كذلك يحب الضحك والمزاح فيما لا كذب فيه ولا استهانة بشرائع الإسلام، ومن أجل ذلك اتخذ له نديمًا يضحكه ويمزح معه، وهو «ابن أبي مريم المدِينِيُّ أو المدَنِيُّ»، كان مضحاكا فَكِهًا، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممَّن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان، وبلغ من خاصته بالرشيد أن

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 33 – 35.

بوأه منزلا في قصره، وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه، فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائما، فكشف اللحاف عن ظهره، ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك، قال الرشيد: ويلك! قم إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي.

فمضى وتركه نائما، وتأهب الرشيد للصلاة، فجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين، قد قام إلى الصلاة. فقام فألقى عليه ثيابه، ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن ضحك في صلاته، ثم التفت إليه وهو كالمغضب، فقال: يا ابن أبي مريم، في الصلاة أيضًا! قال: يا هذا وما صنعت؟ قال: قطعت عليَّ صلاتي، قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاما غمَّني حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] فقلت: لا أدري والله! فعاد فضحك، وقال الرشيد: إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما[1].

ومازح الرشيد زوجته أم جعفر زبيدة، فقال لها: كيف أصبحت يا أم نهر؟، فاغتمت لذلك ولم تفهم معناه، فأنفذت إلى الأصمعيِّ تسأله عن ذلك، وقالت: إن أمير المؤمنين استدعاني، وقال: هلمي يا أم نهر، فما معنى ذلك؟، فقال لها: إن جعفرًا في اللغة هو النهر الصغير وأنت أم جعفر. فطابت نفسها[2].

ولم يُظهر خليفة- من قبل أو بعد - ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في الحج أو الغزو، لقد كان جهاد الرشيد وحجه دائمين، فهو إن لم يكن في حج فهو في غزو، وبلغ من ورعه أنه حج ماشيًا لمنام رأى فيه رسول الله ﷺ وطلب منه أن يحج ماشيًا وأن يغزو، ففي النجوم الزاهرة

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 349.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/ 315، 3/ 173.

أن هارون الرشيد رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له: «يا هارون، إن هذا الأمر صائر إليك فحج ماشيًا، واغز، ووسِّع على أهل الحرمين»، فأنفق فيهم الرشيد أموالًا عظيمة ولم يحج خليفة قبله ولا بعده ماشيًا رحمه الله[1].

وقد أقام الرشيد للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه، وهي السنوات 170هـ، 173هـ، 174هـ، 175هـ، 177هـ، 179هـ، 181هـ، 186هـ، 188هـ. وكان الرشيد في جهاده لا يترك الخروج مع جنده، بل كان غالبًا في مقدمتهم، ولا يعتاد الراحة، ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب، وفي ذلك يقول أبو نواس:

لَقَد اتَّقيْتَ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَجَاهدتَ نَفسَكَ فَوقَ جهْدِ المُتَّقِي

وأخفْـت أهل الشركِ حتى أنه لتخافُك النُّطفُ التي لم تُخْلَقِ[2]

وكان الرشيد رحمه الله يخاف من أمر الخلافة ويعدها مما ابتلاه الله بها، فقد أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده، قال: «كان الرشيد يقول: «إنا من أهل بيت عظمت رزيتهم، وحَسُنَت بقيتهم، رزيتنا رسول الله ﷺ، وبقيت فينا خلافة الله»[3].

وكما أن الرشيد حفظ للعلماء والفقهاء مكانتهم، كانوا هم كذلك يبادلونه التقدير والمكانة ويدعون له في صلاتهم، ويعرفون حقه ومنزلته، فكان عبد الله بن عبد العزيز العمري يدعو له بقوله: «اللهم إن كان قد تسمى بالرشيد ليرشد، فأرشده، أو لغير ذلك فراجع به، اللهم إن له في الإسلام بالعباس على كل مسلم حقًا، وله بنبيك قرابة ورحمًا، فقرِّبه من كل خير، وبعِّده من كل شر، وأسعدنا به،

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 65.

(2) ويعلق ابن عبد ربه على هذا البيت في العقد الفريد، فيقول: وقد عاب الناس قول الحسن بن هانئ، فقالوا: كيف تخافه النُّطفُ التي لم تخلق؟ ومجاز هذا قريب إذا لحظ أن من خاف شيئًا خافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه وروحه، والنطف داخلة في هذه الجملة، فهو إذا أخاف أهل الشرك أخاف النُّطفَ التي في أصلابها. انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/ 183.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 12.

وأصلحه لنفسه ولنا»[1].

وأخرج الخطيب البغدادي بسنده عن يحيى بن أبي طالب، قال: حَدَّثَنَا عثمان بن كثير الواسطي، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما من نفس تَموت أشد عليَّ موتًا من هارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري»، قال: فكبر ذلك علينا؛ فلما مات هارون، وظهرت تلك الفتن، وكان من المأمون ما حَمل الناس على قول القرآن مَخلوق، قلنا: الشيخ كان أعلم بِما تكلم به[2]. ولم ينس الرشيد نصيبه من الدنيا، بل كان مقبلًا عليها، آخذًا حظه منها. قال الأصمعي: «كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس[3]». وقال الجاحظ: «ولم يكن أحد من أصحابنا، من خلفائنا وأئمتنا، أحظى في الشعر من الرشيد»[4]، أي أكثر احتفالًا بالشعر وأهله.

وظائفه قبل الخلافة

كان هارون قد صار في العاشرة من عمره في خلافة أبيه المهدي (158 – 169هـ)، فلما بلغ الخامسة عشرة ظهرت عليه سمات الأمراء وذوي الخلافة، قوي البنية، حسن الخلق، مثقف الفكر، نابه العقل، وقد أعجب به المهدي، مما دعاه أن يرشحه لخلافة الأمة من بعده، وهذا الترشُّح يحتاج إلى إعداد جيد وتربية عملية قويمة، وكان أقصر طريق لذلك أن يوليه المهدي عظائم الأمور وقيادة الجيوش، فجعله أمير الصائفة سنة 163هـ، وقد توغل الرشيد في حدود الإمبراطورية البيزنطية، وفتح الله على يديه بعض حصونها، ثم عقد صلحًا مع أهلها، وعاد سالمًا غانمًا إلى بغداد.

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 73/ 294.
(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 13 – 18.
(3) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص489.
(4) الجاحظ: الحيوان، 4/ 445.

وفي سنة 164هـ ولَّاه المهدي المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية، فكانت الولاة ترسل من قِبَله، يقيم في بغداد وينيب عنه من يحكم هناك، والمسألة ليست صورية - كما يظن البعض - فإنه مسئول أمام أبيه، وقائده في المغرب مسئول أمامه يبلغه أمور الحكم ومشاكل الناس على فترات متعاقبة.

وفي سنة 165هـ جعله المهدي كذلك على رأس الجيش غازيًا البيزنطيين، وقد فتح الله على يديه وقفل راجعًا إلى بغداد منتصرًا، وقد أقيمت الأفراح والمهرجانات ابتهاجًا بهارون محقق النصر العظيم. وفي سنة 166هـ جعله أبوه ولي العهد بعد أخيه الهادي، وفي سنة 169هـ - وهي السنة التي توفي فيها المهدي - أراد أن يقدمه على الهادي، لِمَا ظهر من شجاعته وعلو شأنه، فحالت منية المهدي دون ذلك[1].

ولايته للعهد

كان موسى الهادي في نواحي جرجان بطبرستان يقود الجيوش لمحاربة الخارجين والمخالفين على الدولة، فلما مات المهدي أخذ الرشيد البيعة لأخيه على الجند، وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة، وكان ذلك في (22 محرم سنة 169هـ/ 4 أغسطس سنة 876م).

كان الرشيد ولي العهد بمقتضى عهد أبيه المهدي، ولكن خَطَر للهادي أن يخلع أخاه ويعهد إلى ولده جعفر من بعده، وقد منَّاه بذلك قوَّاده والمقربون منه، فدسُّوا إلى الشيعة فتكلموا في أمر الرشيد وتنقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وأمر الهادي أن لا يسار بين يدي هـارون بالحربة، فاجتنبه الناس، وتركوا السلام عليه. وكان يحيى بن خالد البرمكي يتولى أمور الرشيد بأمر الهادي،

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج8/ 145، 152. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 241، 253. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص101. محمد رجب البيومي: هارون الرشيد الخليفة العالم والفارس المجاهد، ص62.

فقيل للهادي: "ليس عليك من أخيك خلاف، إنما يحيى يفسده". وقد كان هـارون طاب نفسًا بالخلع، فمنعه يحيى عنه، فلما أحضره الهادي، وقال له في ذلك، قال يحيى: "يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هـانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد للبيعة"، فقال الهادي: "صدقت"، وسكت عنه.

ومع ظهور اقتناع الهادي بصحة قول يحيى، لم يتركه مشيروه، بل ما زالوا يحرضونه على الرشيد حتى جدَّ فيه واشتد غضبه منه، وضيَّق الهادي على أخيه، فلما كان ذلك استشار هـارونُ يحيى في ذلك، فقال له يحيى: "استأذنه في الصيد، فإذا خرجت فأبعد، ودافع الأيام"، ففعل ذلك وأذن له، فلما غاب الرشيد أكثر مما استأذن، جعل الهادي يكتب إليه ويصرفه، فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر، فأظهر الهادي شتمه، وبسط مواليه وقواده في الرشيد ألسنتهم.

وقد قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام، ولما اشتد مرض الهادي أرسلت الخيزران إلى يحيى تأمره بالاستعداد، فأحضر يحيى كتابًا فكتبوا الكتب من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادي، وأنه قد ولَّاهم ما كان ويكون، فلما مات الهادي بعيساباذ سيرت الكتب على البرد.

وقيل لما مات الهادي كان يحيى بن خالد بن برمك محبوسًا، وقد عزم الهادي على قتله، فجاء هـرثمة بن أعين - أحد كبار قادة الجيوش العباسية - إلى الرشيد وأخرجه وأجلسه للخلافة، فأرسل الرشيد إلى يحيى وأخرجه من الحبس واستوزره[1].

ولمَّا بويع هـارون الرشيد بالخلافة، قال إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانـت سَقِيمَةً فلما وَلَى هـارونُ أَشْرَقَ نورها

(1) انظر تفاصيل ذلك في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 207 - 214. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3 / 490 - 500. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 265 - 274. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 22/ 122 - 126.

بيُمْنِ أمين اللَّه هـارون ذي الندى فَهارُونُ واليها، ويحيى وزيرها

خلافة الرشيد

بويع لهارون الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (14 ربيع الأول سنة 170هـ - 14 سبتمبر 786م)، وله من العمر 22 سنة، ولم يزل خليفة إلى أن توفي في (3 جمادى الآخرة 193هـ - 24 مارس 808م) وهو ابن 45 سنة، فكانت مدة خلافته 23 سنة وشهرين و18 يومًا[1].

العصر الذهبي للخلافة الإسلامية

بلغت الخلافة الإسلامية في عصر الرشيد أوج نضارتها وجمال زهرتها، فما تنعَّم الناس بمثل ما تنعَّموا في أيام الرشيد، وما أجمل وصف السيوطي: "كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حسنها أعراس"[2]. فبخلافة الرشيد بدأ عصر زاهر في تاريخ الدولة العباسية، امتدَّ لما يزيد عن خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت فيها الآداب والفنون، وعمَّ الرخاء والأمن ربوع البلاد، وكانت دولة الرشيد مترامية الأطراف تمتد من وسط آسيا شرقًا وحتى المحيط الأطلنطي غربًا، في دولة مختلفة البيئات، متعددة العادات والتقاليد، معرَّضة للفتن والثورات في المشرق والمغرب، غير أن قيادته فرضت سلطانها فعمَّ الأمن والأمان.

ويزداد إعجابك بالرشيد حين تعلم أنه أمسك بزمام الخلافة وهو ابن اثنين وعشرين سنة، فاستطاع بشبابه أن يُرجع للدولة الإسلامية شبابها ونضارتها، فرحمه الله.

لقد كان عصر هـارون الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة العباسية أو قل بالنسبة للتاريخ الإسلامي الوسيط كلها، فقد اكتملت للدولة ألوان من العظمة

(1) ابن حبيب: المحبر، 1/ 39. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 242 - 246. أبو الفداء الملك المؤيد: المختصر في أخبار البشر، 2/ 18.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 212.

والقوة والمجد العلمي، وكانت الدولة مهيبة الجانب، فاحترمتها الدول المجاورة وهابتها، وفي الداخل كان الرشيد أقوى من كل الأحداث ومن الفتن التي ثارت هـنا وهناك، فكان الاستقرار طابع الدولة، والعظمة طابع الخليفة[1].

إنصاف المؤرخين لهارون الرشيد

وقد أنصف المؤرخون هـارون الرشيد أيَّة إنصاف، لما رأوا وسمعوا وقرأوا عن عظيم سيرته ونبل أخلاقه، وتحروا الأمانة فيما نقلوا عن حياته، فكانت كلماتهم أصدق تعبيرًا في وصفه ووصف خلافته. ذكر المسعودي في مروج الذهب أن الخليفة القاهر بالله (شوال 320هـ - جمادى الأولى 322هـ) أمر أنيسه محمد بن علي العبدي الخرساني الأخباري بوصف الخلفاء العباسيين، فلما وصل إلى الرشيد، قال: "كان مواظبًا على الحج، متابعًا للغزو، واتخِاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة..، فعمَّ الناسَ إحسانُه، مع ما قُرِن به من عدله، ثم بنى الثغور، ومَدَّن المدن، وحَصَّن فيها الحصون،..، وأحكم بناء الحرب، وغير ذلك من دور السبب والمواضع للمرابطين، واتبعه عماله، وسلكوا طريقته، وقَفَتْهُ رعيف مقتدية بعمله، مُسْتَنِدة بإمامته، فقمع الباطل، وأظهر الحق، وأنار الأعلام، وبرز على سائر الأُمم..، فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس، وكثير مما يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف"[2].

ويقول الذهبي رحمه الله - وهو بلا ريب إمام النقَّاد ورجال الجرح والتعديل - عن الرشيد: "وكان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج، وجهاد، وغزو، وشجاعة، ورأي..، وكان أبيض، طويلًا، جميلًا، وسيمًا، إلى السمن، ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، قد وخطه الشيب..، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على

(1) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - الخلافة العباسية، 3/ 142.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 251 - 252.

نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ..، ومحاسنه كثيرة". وقال الذهبي أيضًا في ترجمته: "وكان من أمْيَز الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج"[1].

وقال فيه ابن كثير: "كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ سِيرَةً، وَأَكْثَرِهِمْ غَزْوًا وَحَجًّا بِنَفْسِهِ..، وَكَانَ يُحِبُّ الْفُقَهَاءَ، وَالشُّعَرَاءَ، وَيُعْطِيهِمْ كَثِيرًا، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ بِرٌّ وَلَا مَعْرُوفٌ، وَكَانَ نَقْشُ خَاتَمِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ..، وَفَضَائِلُهُ، وَمَكَارِمُهُ، وَمَآثِرُهُ، وَأَشْعَارُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا، قَدْ أَوْرَدَ الْأَئِمَّةُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا"[2].

وقال ابن دحية الكلبي (ت 633هـ): "وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه، وعدله، وتواضعه، وزيارته العلماء في ديارهم"[3].

وفاة الرشيد

في ربيع الآخر سنة 192هـ قفل هـارون الرشيد عائدًا من الرقة إلى بغداد، يريد الشخوص إلى خراسان لمحاربة رافع بن الليث، الذي خرج على الخلافة في بلاد ما وراء النهر سنة 190هـ وقد عظم أمره، مما اضطر الخليفة أن يخرج له بنفسه، خرج الرشيد من بغداد في شعبان 192هـ واستخلف بالرقة ابنه القاسم، واستخلف ابنه الأمين على مدينة السلام، واصطحب معه ولده المأمون ووزيره الفضل بن الربيع، وجمعًا كبيرًا من كبار قواته ومستشاريه، وفي الطريق اشتدت العلة بالرشيد، ولكنه أكمل مسيره حتى بلغ طوس في صفر 193هـ فأقام بها، ثم بعث بولده المأمون إلى خراسان ووصى وزيره الفضل بن الربيع إن هـو مات أن يلحق بالمأمون.

ولما اشتد المرض بالرشيد، قال للفضل بن الربيع: ما تقول الناس؟ قال: يقولون: إن شأني أمير المؤمنين قد مات. فأراد الرشيد أن يرد على الإشاعة، فأمر

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 287 – 290. بتصرف. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1223.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 27 – 45. بتصرف.
(3) الزركلي: الأعلام، 8/ 62.

أن يسرج له فرسًا ليركبه ويخرج، فأسرج له، وحمل حتى وضع على السرج، فاسترخت فخذاه ولم يستطع الثبوت. فقال: أرى الناس قد صدقوا.

ثم جمعوا له الأطباء يعالجونه، فقال الرشيد:

إِنَّ الطَّبِيْبَ بِطِبِّهِ وَدَوَائِهِ لاَ يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَقْدُوْرٍ أَتَى

مَا لِلطَّبِيْبِ يَمُوْتُ بِالدَّاءِ الَّذِي قَدْ كَانَ يُبْرِي مِثْلَهُ فِيْمَا مَضَى

ولما أيقن من موته رحمه الله دعا بأكفان فاختار منها ما أراد، ثم قال: احفروا لي قبرًا قبل أن أموت، فلما فُرغ من حفر القبر، أنزل فيه قومًا فقرءوا فيه القرآن حتى ختموا، وهو في محفة على شفير القبر، وجعل ينظر إلى القبر، ثم قال: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الْحَاقَّة: 28، 29] وَيَبْكِي، ويقول: "واسوءتاه من رسول الله ﷺ".

ثم دعا بأخي رافع بن ليث - وكان أخو رافع بن الليث ممن خرج على الخليفة وقبض عليه، فقال: "أزعجتموني حتى تجشَّمْتُ هـذه الأسفار مع علتي وضعفي". ثم قال: "لأَقْتُلَنَّكَ قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك"، ثم أمر ففُصل عضوًا عضوًا، ومع ذلك لم يستطع الرشيد أن يقضي على ثورة رافع، وظل أمر رافع حتى سنة 195هـ؛ حيث أطاع المأمون من غير قتال.

ثم دعا الرشيد من كان بعسكره من بني هـاشم، فقال: «إن كل مخلوق ميت، وكل جديد بَال، وقد نزل بي ما ترون، وأنا أوصيكم بثلاث: الحفظ لأمانتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم، وانظروا محمدًا وعبد الله، فمن بغى منهما على صاحبه، فردُّوه عن بغيه، وقبِّحوا له بغيه ونكثه». وأقطع في ذلك اليوم أموالًا كثيرة وضياعًا ورباعًا.

ويقال: إن آخر ما تكلَّم به الرشيد حين احتضر: «اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت، ارحم من يموت». وقد أفضت روحه إلى بارئها لثلاث

ليال خلون من ذي الحجة سنة 193هـ - 24 مارس 808 م، وهو ابن 45 سنة، وصلى عليه ابنه صالح.

قال ابن كثير: «وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحدٌ من الخلفاء، من الجواهر والأثاث والأمتعة، سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينارٍ، وخمسة وثلاثون ألف ألف دينارٍ (135 مليون دينارٍ). قال ابن جرير: وكان في بيت المال لمصالح الناس تسعمائة ألف ألف، ونيف (900 مليون دينارٍ ونيف)»[1].

فرحم الله الرشيد الخليفة العالم المجاهد،

وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(1) انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 302 - 303. أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، 1/ 391 - 392. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 341 - 346. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 9/ 232. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 46 - 48. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص49 - 50.

obeikandl.com

فيما مضى لمحات سريعة ومقتطفات مختصرة من حياة أمير المؤمنين هـارون الرشيد، والآن جاء الدور للحديث عن أيام الرشيد، وأهم ملامح سياسته الداخلية والخارجية وأحوال الأمة الإسلامية في عصره، وأهم الجوانب الحضارية في عهده، خلافةً، وإدارةً، وفكرًا، وقضاءً، واجتماعًا، واقتصادًا، وغيرها مما يخص أحوال الخلافة وأمور الدولة.

obeikandl.com

«إن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق»

(ابن خلدون: المقدمة، 2/ 519)

obeikandl.com